الوعود الثلاثة

في تاريخ فلسطين

وعد الله — وعد تورش — وعد بلفور

هل التاريخ يعيد نفسه ؟

الأستاذ عيسى السفرى

إذا وقع حدث تاريخي هام ، ثم تكرر وقوع هذا الحدث ، أو ما يشبهه ، بعد مدة من الزمن[1] قالوا : « إن التاريخ يعيد نفسه »

ومن يراجع التاريخ ، قديمه وحديثه ، يجد إن الوعود الثلاثة التي حصل عليها اليهود بالعودة إلى فلسطين كانت كلها متشابهة بأسبابها ونتائجها .

فهل كان ما حدث من قبيل الصدف ؟ . أم أن هناك عوامل خافية جعلت التاريخ يعيد نفسه ثلاث مرات متوالية ؟. هذا ما نجد الجواب عليه في البحث التاريخي الآتي :

١ — وعد الله

(١) تمهيد: اليهود قبيلة سامية هاجرت (بزعامة ابراهيم) من أور[1] الكلدانيين في العراق سنة ١٩٢١ق. م بضغط من سكانه وتوطنت فلسطين أرض الكنعانيين[2] ، ولكن الكنعانيين قاوموهم وأجاعوهم فاضطروا للهجرة إلى مصر . واضطهدهم المصريون بدورهم وأذلوهم فأجبروهم على العودة إلى فلسطين بقودهم موسى النبي . وكان ذلك سنة ١٤٩١ ق. م

وتاه بهم موسى في برية سيناء أربعين سنة ليقضي على جرثومة الذل التي تأصلت في نفوسهم ، ويجعلهم مستعدين لفتح فلسطين . وعبثاً كانت محاولته هذه ، فقد تمردوا عليه وأبوا أن يدخلوا فلسطين ، ذلك بأن فيها يوماً جبارين (هم الفلسطينيون)

« ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا فإنا داخلون ... » « قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون[3] »

وهكذا اضطر موسى أن يذهب بهم إلى فلسطين عن طريق

(١) المدة : للمقدار من الزمن يقع على القليل والكثير .

(١) أور : كلمة كلدانية معناها مدينة .

(٢) كنعان معناها بالعبرية الأراضي الواطئة ، وكانت مساكنهم وقد هاجروا من جزيرة العرب سنة ٣٥٠٠ ق. م

(٣) سورة المائدة آيات ٢٠ و ٢١ و ٢٣

بينها إلا اتفاق الوزن والقافية . هذه كلها وجوه لما لحق الشعر الجاهلي من زيادة وحذف وتغيير . ثم لا ننسى أن من الرواة من كان يتعمد الحذف والتغيير . ودليلنا على هذا قلة ما نلقاه فيما لدينا من الشعر من أسماء الآلهة الجاهلية ، وهي آلهة كانت تشغل جانباً من حياة الجاهليين ، وكان لها صدى ولا شك في أشعارهم . ثم هناك من الرواة من كان يُصلح ما يصل إليه من أشعار ، ويزيد عليه مُكمِّلا . هذا إلى ما يقوله ابن سلام (ص ٢٢) من أنه لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ؛ وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم . وأخيراً نصل إلى من كان يقصد الخداع من الرواة ، فكان ينحل شعره الشعراء القدماء ، ليشتهر بين الناس بكثرة الرواية ! ويقول في هذا ابن سلام (ص ٢٢-٢٣)

« ... ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار . وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال » . فهذه وجوه أخرى لما لحق الشعر الجاهلي من زيادة وحذف وتغيير وانتحال .

* * *

هذه صورة للرواية العربية قبل عصر حماد وفي أثناء عصره ؛ جهدنا أن تكون واضحة الخطوط ، بينة اللامح ، صادقة التعبير . وهي صورة ستعيننا دون ريب على تفهم رواية حماد الخاصة به ، وعلى بحثها البحث الصحيح القائم على أسس صحيحة ، وعلى الخروج من هذا بالنتائج الصحيحة التي إنما نكتب هذا البحث في سبيل بلوغها .

(للبحث بقية)

السيد يعقوب بكر

الجنوب الشرق لينحاشى بأس الفلسطينيين سكان الساحل .

وصعد موسى إلى جبل نبو قبالة أريحا فأراه الرب أرض فلسطين وقال له :

« هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها ، قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر[١] .

٢ — وهو الله

ومات موسى ، فتسلم يشوع بن نون القيادة من بعده . ونفذ (يهوه)[٢] وعده على يد يشوع[٣] . وفيما يلى نص هذا الوعد :

عبدى يشوع

قم الآن واعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى ، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات . تشدد وتشجع لأنك أنت تقيم لهذا الشعب الأرض التى حلفت لآبائهم أن أعطيهم[٤]

فى الشهر الأول من السنة ٢٥٥٤ للخليقة[٥] (...)

فكان هذا أول وعد أعطى لليهود بالعودة إلى فلسطين .

* * *

وكانت أوامر يشوع لجيشه ، عند ما فتح أريحا ، شديدة قاسية ، فقد حرّموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها[٦]

وهذه القسوة الوحشية فى الفتح جعلت الكنعانيين وغيرهم من السكان يحقدون على اليهود الناصبين ، ويتربصون الفرص للايقاع بهم . ومن حسن حظ اليهود ، لا بل من سوء حظ فلسطين ، أن كان الكنعانيون فى أواخر مجدهم وسلطانهم ، فكن ذلك اليهود من الاستقرار إلى حين فى فلسطين .

على أن استقرار اليهود فى فلسطين لم يزد على ٦٤٥ سنة ، كانوا خلالها عرضة لغزوات أهل البلاد ، الكنعانيين فى الداخل والفلسطينيين فى الساحل . ثم دب الخلاف بينهم فانقسموا إلى فئتين : مملكة إسرائيل وقصبتها السامرة (نابلس) ، ومملكة يهوذا وقصبتها أورشليم (القدس) ولم تتعد حدود هاتين المملكتين المنطقة الجبلية فى فلسطين كلها ...

* * *

ولم يفعل اليهود المستقيم فى عينى الرب ، فتركوا عبادته وعبدوا تماثيل مسبوكة للبعليم[١] وذبحوا لها . حتى أن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ، ونجسوا بيت الرب الذى قدسه فى أورشليم[٢] ، وكانوا يهزأون برسل الله ، ورذلوا كلامه ، وتهاونوا بأنبيائه[٣] ، وأساءوا إلى الله الذى أحسن إليهم الإحسان كله ! ... وهو الذى أخرجهم من أرض مصر من بيت العبودية ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعلهم أمة بين الأمم .

وكانت أعمال اليهود المنكرة مثاراً لغضب الله . فأظهر شلمناصر ملك أشور على مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق . م فأبادها وسبى شعبها إلى مملكته . كما أظهر نبوخذ نصر ملك بابل (بعد ذلك) على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق م فأبادها وقتل مختارى اليهود بالسيف فى بيت مقدسهم ، ولم يشفق على فتى أو عذراء ، أو شيخ أو أشيب . وأحرق بيت الله وهدم سور أورشليم ، وأحرق جميع قصورها بالنار ، وأهلك جميع آنيتها الثمينة ، وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل ، فكانوا له ولبنيه عبيداً[٤] ...

وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون[٥]

وهكذا كانت إرادة الله باليهود الذين اختارهم (كما تقول التوراة) من دون شعوب الأرض ليكونوا شعباً له مختاراً ، وبإرادته هذه انتهى الفصل الأول من رواية الوطن القومى اليهودى فى فلسطين!

٢ — وهو فورس

دام السبى البابلى مدة ٧٠ سنة . ثم ورث قورش ملك الفرس إمبراطورية الكلدانيين ، فأخذ اليهود ينوحون ويبكون ، يرجون ويستعطفون ، ويطلبون العودة إلى فلسطين ! .

(١) سفر التثنية ٣٤ : ٤ (٢) يهوه : إله إسرائيل

(٣) أعطى هذا الوعد لإبراهيم وخذ فى زمن يشوع

(٤) سفر يشوع ١ : ٢ و٣ و٤ و٦

(٥) الموافقة لسنة ١٤٥٠ ق.م

(٦) كتاب فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية لصاحب هذا المقال ص ٦٨ .

(١) البعليم بالعبرية جمع بعل أصنام أو سلمون أو آلهة زور .

(٢) هو الهيكل الذى بناه سليمان فى القدس سنة ١٠١٢ ق . م .

(٣) سفر أخبار الأيام الثانى ٣٦ : ١٤ و١٦ .

(٤) « « « « ٣٦ : ١٧ — ٢٠ .

(٥) سورة البقرة الآية ٦٠ .

ولسياسة موضوعة ... صار قورش المجوسي من المؤمنين بإله إسرائيل ! ... فأطلق نداء في كل مملكته ، في السنة الأولى لملكه ، فقال :

«إن الرب إله السماء قد أعطاني ممالك الأرض ، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا . فمن منكم من جميع شعبه الرب معه وليصعد»[1]

ومات قورش فخلفه أرتحشستا ، وهذا ثبت وعد قورش كتابة بالتصريح الآتي وهذا نصه :

من أرتحشستا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة السماء قد صدر مني أمر أن كل من أراد في ملكي من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم فليرجع ، وأن يبنى بيت الرب إله إسرائيل . وليعلم أن جميع الكهنة واللاويين والمغنين والنثينيم[2] وخدام بيت الله هذا لا يؤذن أن يُلقى عليهم جزية أو خراج أو خفارة»[3]

في السنة السابعة للملك (٥٢٩ ق. م) (التوقيع)

فكان هذا ثاني وعد أعطي لليهود بالعودة إلى فلسطين .

* * *

عاد اليهود إلى فلسطين ، بحسب منطوق هذا الوعد متحدين إرادة الله وإرادة سكان البلاد . وبنوا الهيكل ورمموا أسوار المدينة (القدس) فكانوا باليد الواحدة يعملون العمل ، وبالأخرى يمسكون السلاح[4] .

وكتب زعماء البلاد ، سنبلط الحوروني وطوبيا العبد العموني وجشم العربي ، إلى الملك محتجين وقائلين :

«فتش في سفر أخبار آبائك فتجد في سفر الأخبار وتعلم أن هذه المدينة مدينة عاصية ومضرة للملوك والبلاد ، وقد عملوا عصياناً في وسطها منذ الأيام القديمة ، لذلك أُخربت هذه المدينة . ونحن نُعلم الملك أنه إذا بُنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يكون لك عند ذلك نصيب في عبر النهر»[5] ...

وهكذا قام أصحاب البلاد بالواجب عليهم محذرين مملكة فارس من نتائج هذه السياسة ! ...

مرت سنون ، تناوب الحكم في فلسطين اليونان والرومان[6] وظلت المدينة عاصية ، بالرغم مما عمله بيلاطس البنطي (عامل رومة على فلسطين) لليهود . فقد شيد بعض الحمامات في السامرة (نابلس) وجلب الماء الكافي إلى أورشليم (القدس) من الينابيع الموجودة جنوبي المدينة : وأنشأ طريقين يؤديان إلى القدس من الشمال ومن الشرق ، فنشطت حركة التجارة وحركة الحجاج ، وهما مورد لا يستهان به لزيادة الدخل[1] .

وأعمال كهذه يقوم بها بيلاطس لخدمة اليهود تستحق منهم أن ينصبوا له تمثالا ! ... وفوق هذا كله فإن بيلاطس التمس[2] لم يسمح له قيصر بأن تنشب ثورات عنده ، وهو في الوقت ذاته ممنوع من مكافحة التحريضات التي يقوم بها اليهود في الجليل[3]

أما أشر المحرضين فلم يكونوا الكهنة ولا رجال الشرع أنفسهم ، وإنما كانوا الشبان الكثيري الإدعاء ، ممن يحضرون خطبهم ومحاضراتهم . هؤلاء هم الذين ينشون في الجمهور العادي روح التمرد والشغب[4] إنهم يهددون رومة وفي الوقت نفسه يساومون ! ... وقد علقوا لوحات ونشرات كثيرة على أسوار (أنطونيا) كتبت عليها جمل تحريضية فيها تشهير ببيلاطس وقيصر[5]

(٥) خراب ودمار : وتمادى اليهود في تمردهم وشغبهم حتى يئست حكومة رومة من إيجاد علاج لهذه الحالة . فأرسلت (تيطى) القائد الروماني سنة ٧١ ميلادية ، فحاصر القدس ثم هدمها وهدم الهيكل إلى أساساته . فهلك من اليهود مليون ومائة ألف نفس بالجوع والنار والسيف ، ونحو ٩٧ ألفاً بيعوا كعبيد ، ما عدا جوعاً لا تحصى هلكت في أماكن أخرى في اليهودية[6] ، وتم بذلك قول المسيح عليه السلام :

«يا أورشليم يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء ورجامة المرسلين إليها . كم مرة أردتُ أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا . هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً»[7] .

وهكذا كانت إرادة الله ، وبإرادته هذه انتهى الفصل الثاني من رواية الوطن القومي اليهودي في فلسطين ! ...

٣ — وعد بلفور

ظل اليهود بعد ضربة تيطى مشتتين في بقاع الأرض ، وحل

(١) سفر أخبار الأيام الثاني ٣٦ : ٢٣ .
(٢) النثينيم : الموهوبون أو المبطون .
(٣) عزرا ٧ : ١٢ و١٣ و٢٤ .
(٤) سفر نحميا ٤ : ١٧ . (٥) سفر نحميا ٢ : ١٩ .
(٦) فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية للصاحب هذا المقال ص ٦٧

(١) رسائل بيلاطس النبطي ص ٢٧ .
(٢) يقوم مقامه اليوم المندوب السامي .
(٣) و(٤) و (٥) رسائل بيلاطس النبطي ص ٢٩ و ٦٠ وأنطونيا قصر بيلاطس النبطي
(٦) يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير .
(٧) متى ٢٣ : ٣٧ و ٣٨ .

الحكم العربي محل الحكم الروماني سنة ٦٣٧ م. وقد فتحوا هذه البلاد فتحاً إنسانياً عادلا. تدل عليه الوصية الخالدة التالية[١]:

« لا تخونوا ولا تغدروا، ولا تغلوا ولا تمثلوا. ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً. ولا تهمروا نخلا وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً. وسوف تمرون بأناس قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له »

وهكذا كان الحكم العربي (الذي دام مدة ٨٨٠ سنة) نعمة كبرى للناس وبخاصة اليهود قلدت به أعناقهم. ثم انتقل الحكم إلى الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ ميلادية، وكان العرب شركاء لهم في الحكم مدة ٤٠٠ سنة[٢]

* * *

وفي سنة ١٩١٧ احتل الإنكليز فلسطين وقام اليهود بالتجربة القاسية للمرة الثالثة. والسياسة موضوعة ... أصبح الإنكليز القيمين على راحة اليهود وطمأنينتهم، فأعطوهم وعداً بالهجرة إلى فلسطين هذا نصه:

عزيزي اللورد روتشلد

يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك بأن حكومة جلالته تنظر بعين الرضى إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وتبذل الجهود في سبيل ذلك. على أن لا يجري شيء يضر بالحقوق الدينية والمدنية لغير اليهود في فلسطين، أو يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسي في غيرها من البلدان الأخرى.

اللورد بلفور
وزير الخارجية البريطانية

في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧

وهكذا اختلف الناطقون بهذا الوعد باختلاف المكان والزمان. فمن وعد ينطق به الله، إلى وعد ينطق به ملك، إلى وعد ينطق به وزير ... وهو ثالث وعد أعطي لليهود بالعودة إلى فلسطين..

وطمع اليهود بعد ذلك في الوطن القومي بفلسطين كلها ... واحتج العرب أصحاب البلاد على ذلك، وأنذروا بريطانيا من عواقب هذه السياسة الخاطئة.

وازداد تمرد اليهود وتحديهم لسلطة لندن حتى اعتدوا على رجالاتها المسئولين بالقتل والإرهاب[١] وأتلفوا الكثير من دوائر الحكومة وممتلكاتها، ونسفوا مراكز البوليس بالديناميت، وأتلفوا خطوط السكك الحديدية، وتحدوا القانون بتهريب مهاجريهم غير الشرعيين ... واعتداءاتهم المتواصلة على رجال الأمن، دون أن يسمح لهم بأن يطلقوا النار على المعتدين حتى ولو قتل هؤلاء إخوانهم[٢] ووزعوا المنشورات التحريضية المختلفة، فيها تشهير بحكومة فلسطين وسلطة لندن!

وكما تحدى اليهود الإنكليز وأساءوا إليهم، كذلك تحدوا العرب في عقر دارهم بالسلاح وأساءوا إليهم، وهم الذين أووهم في بلادهم وكانت إمبراطوريتهم الواسعة فيما مضى الملجأ الوحيد لهم من الاضطهاد اللاساعي الذي أثاره عليهم الغرب!...

والإنكليز هم الذين مكنوا اليهود في فلسطين، وألقوا مقاليدها التجارية والمالية والاقتصادية بين أيديهم. وهم الذين سهلوا لهم (بجميع الطرق) استملاك الأراضي في فلسطين لاستقرار مهاجريهم الشرعيين وغير الشرعيين فيها، ووقفت جميع أسلحتها لحمايتهم، وسخرت بوسائلها لسماع أباطيلهم!...

وكان الواجب على اليهود أن يقبّلوا اليد التي أحسنت إليهم لا أن يحاولوا قطعها، وأن يشكروا العرب جزيل الشكر على تعسكهم إلى الآن بأهداب الصبر الجميل!..

وما أشبه ثورة اليهود على الإنكليز اليوم بثورتهم على الرومان في الماضي. والعالم أجمع يتجه بأبصاره نحو فلسطين، ويرقب باهتمام نهاية الفصل الأخير من هذه الرواية المحزنة التي يلذ لرجال السياسة إعادة تمثيلها للمرة الثالثة!

والناس يتساءلون عن التاريخ هل يعيد نفسه؟ .... وهل يؤدي وعد بلفور إلى نفس النتيجة التي أدى إليها وعد الله ووعد قورش؟...

إن النتيجة لا تزال في ضمير الزمن، والمستقبل القريب أو البعيد هو الذي سيقول، في الوطن القومي اليهودي، كلمته الفاصلة! وإرادة الله فوق الجميع!...

(يافا) **عيسى الفري**

---

(١) هي وصية الخلفاء الراشدين للقواد — ابن الأثير. قابلها بوصية يشوع بن نون!

(٢) فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية لصاحب هذا المقال ص ١٢.

(١) أطلقوا النار على مخامة المندوب السامي السر هارولد مكايكل في القدس بتاريخ ٨ آب سنة ١٩٤٤ بقصد اغتياله. وقتلوا اللورد موين في القاهرة بتاريخ ٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤٤.

(٢) سؤال أثاره في البرلمان اللورد ونرتون. قابله هذا بما كان يشكو منه بلاطس النبطي.